سجع الكهان نثرا اختيار ودراسة

سجع الكهان:

وجدت في المجتمع الجاهلي فئة عرفت باسم "الكهّان" , كانوا سدنة المعابد الوثنية , وادعى هؤلاء المعرفة بالغيب وان وسطاؤهم في ذلك من الجن وقد اعطاهم ذلك هالة من الفرادة والتميز والهيبة , وتقاطر الناس عليهم يستشيرونهم قبل السفر أو الزواج أو في الثار والقتال اوفي تفسير الاحلام أو غير ذلك من الشؤون الحياتية الاخرى , وكان المجتمع في ذلك الوقت يتقبل أمثال هذه المعتقدات لعدم توفر جهة أخرى تريحهم وتطمئن ارواحهم , وكان الكهان يستغلون ذلك استغلالا بشعا من أجل فرض آرائهم وسيطرتهم الروحية على المجتمع , ولو صدف وصح توقع الكاهن في حادثة ما فإن الناس يتناقلونها ويضخمون وقائعها ويبالغون في اعجابهم بالحدث المعجز وهذا ماجعل الناس يبدون تجاههم نوعا من الخشية الممزوجة بالاحترام , وكان من كهّان الجاهلية المشهورين : سطيح الذئبي , وشق بن مصعب الانماري , و المأمور الحارثي , والزرقاء بنت زهير , وطريفة الخير وغيرهم ممن لفت الاساطير اشكالهم وتصرفاتهم .

روي عن هؤلاء الكهان وفق ماتناقلته الاخبار والمدونات نوع من النثر عرف باسم "سجع الكهان" , وكان السجع وسيلتهم للتأثير في نفوس المستمعين اليهم وتزويق اقوالهم وصرف الناس عن جوهر الامر الى قشرته , واعتمدوا على مزج سجعهم بكلمات عن ظواهر الطبيعة دون ان ينسوا اضافة الكثير من الرموز والاشارات المبهمة التي ليس لها معنى .

خطبة قس بن ساعدة:

كان قس بن ساعدة الإيادى من حكماء العرب قبل الإسلام، وقد تُوفى حوالى عام 600م، ويعده «الشهرستانى» فى كتاب «المِلَل والنحل» بين مَن يعتقد التوحيد ويؤمن بيوم الحساب، «وكان زاهِداً فى الدنيا، خاصة بعد أنْ مات له أخوان ودفنَهُما بيده، وكان يَحضُرُ سوقَ عُكاظ ويَسيرُ بَين الناس ويُنذِرهُم.. ولقد ضُرِبَ بِه المَثلُ فى الخطابة والبلاغة والحكمة». وتُنسب إلى قس بن ساعدة حِكَم كثيرة، منها: «إذا خاصمتَ فاعدل، وإذا قلتَ فاصدق، ولا تستودعنَّ سرك أحداً، فإنك إن فعلتَ لم تزل وجِلاً»، و«مَن عيَّرك شيئا ففيه مثله، ومَن ظلمك وجد مَن يظلمه، وإذا نهيتَ عن الشىء فابدأ بنفسك، ولا تشاور مشغولاً وإن كان حازماً، ولا جائعاً وإن كان فهِماً، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً».

كان «قس» خطيب العرب قاطبة، وإذا كان الخطباء كثيرين، والشعراء أكثر، فإن مَن يجمع الشعر والخطابة قليل، وكان مضرب أمثال العرب فى البلاغة إذا ما عبروا عن خطيب أو شاعر بليغ، فيقولون: «أبلغ من قس». ومما يُذكر عنه أنه أول مَن خطب متكئاً على عصا، وأول مَن قال: «أما بعد»، وأول مَن كتب: «من فلان إلى فلان»، وأول مَن قال: «البيِّنة على مَن ادَّعَى واليمينُ على مَن أنكر»، ومما ذُكر عنه أنه كان يُنكِر المُنكر، الذى شاع فى الجاهلية والغفلات التى كانت تسيطر على الناس، فتُنسيهم الموت والبعثَ والجزاء، وكان الرسول، «صلى الله عليه وسلم»، قد أدركه قبل مهبط الوحى بعشر سنين، وقال فيه: «يرحم الله قساً، إنى لأرجو يوم القيامة أن يُبعث أمة وحده»، وهذه الخُطبة قالها «قس» فى سوق عُكاظ قبل ظُهور الإسلام، ومما قاله فيها:

«أَيُّها النَّاسُ، اسْمَعُوا وَعُوا، مَنْ عَاشَ مَات، وَمَنْ مَاتَ فَات، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آت.. مطر ونبات وأرزاق وأقوات وآباء وأمهات وأحياء وأموات جمع وأشتات، لَيْلٌ دَاج، وَنَهَارٌ سَاج، وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ومهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور، وَنُجُومٌ تَزْهَر، وَبِحَارٌ تَزْخَر.. إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَبَراً، وإِنَّ فِي الأَرْضِ لَعِبَراً، مَا بَالُ النَّاسِ يَذْهبُونَ وَلاَ يَرْجِعُون؟!، أَرَضُوا فَأَقَامُوا، أَمْ تُرِكُوا فَنَامُوا؟، تباً لأرباب الغفلة من الأمم الخالية والقرون الماضية. يا معشر إياد.. يا مَعْشَرَ إِيَاد: أَيْنَ الآبَاءُ والأَجْدَادُ؟، وأَيْنَ الفَرَاعِنَةُ الشِّدَادُ؟، أَلَمْ يَكُوْنُوا أَكْثَرَ مِنْكُم مَالاً

وأطولَ آجالاً؟، طَحَنَهُم الدهْرُ بِكَلْكَلِهِ، ومزَّقَهم بتطاوُلِه.. يقسم (قس) بالله قَسَماً لا إثم فيه إن لله ديناً هو أرضَى لكم وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكراً».

ويُروى أنه أنشد بعدها، فقال:

فى الذاهبينَ الأولينَ مِن القرونِ لنا بَصائر
ورأيتُ قومى نَحوها تَمضى الأَكابر والأصاغِرُ
لا يَرجعُ الماضى إلىَّ ولا مِن الباقين غابر
أيقنتُ أنى لا محالةَ حيثُ صارَ القومُ صائر

خصائص أسجاع الكهان :

أما من خصائص أسجاع الكهان فإنها - في جملتها - كلام عام، لا يرشد السامع إلى حقائق جلية، وإنما يضعه في الغموض والإبهام، باصطناع السجع، والإيماء، وقصر الجمل لإلهاء السامع عن تتبع ما يلقى إليه من الأخبار الغريبة، وجعله في حالة نفسية مضطربة تساعد الكاهن على الوصول إلى ما يريد، بكل سهولة ويسر، ويكون المخاطب، بتلك الإشارات الغامضة، والألفاظ المبهمة، والأقسام المؤكدة، والأسجاع المنمقة، مستعداً لقبول كل ما يقال له، بلا جدال أو اعتراض، وتأويل ما يسمعه بحسب حالته ومدى فهمه.

كما يلاحظ في نصوص الكهان أنها تحمل طابع التكلف الشديد في سجعها ولهذا لا يطمأن إليها كلها، فربما شاب بعضها الوضع والنحل، وربما كان بعضها محفوظاً صحيحاً، لقصره وإيجازه. أما سبب دخولها في النثر الفني فهو قيامها على السجع في عباراتها.

تطبيق ودراسة:

بالعدودة إلى المراجع المتعلقة بالخطابة العربية ،والبلاغة، والنحو, حاول أن تدرس النص في بعض جمالياته التعبيرية بمقاربة المستويات الآتية:

أ- المستوى الصوتي: يتلخص في الجناس ، والسجع، المقابلة....إلخ

ب- المستوى التركيبي: يتلخص في الجمل الفعلية ، والجمل الاسمية....إلخ

ج- المستوى الدلالي: يتلخص في التشبيه والاستعارة والكناية....إلخ